الترف

خرجت يوماً من القاهرة أريد التنزه في الجزيرة فمررت في الشوارع الفسيحة بين البنايات المشيدة الاركان والقصور الفاخرة ورأيت المركبات على انواعها تتجاوى بركبها مدلة بمن فيها فتجلت لدى مخيلتي حالة العاصمة من الترف وما بلغت اليه من ظاهر الرقي وشرعت أفكر في ما مرَّ عليَّ من اقوال الكتَّاب في الترف ومزيَّته وكيف ان الباحثين اختلفوا في مبلغ ضرره فمن قائل ان ضرره واقع في كل حالاته ومن ذاهب الى انهُ لا يضرُّ الَّا اذا تجاوز الاعتدال الى حدّ الافراط وحمل على عمل ما لا يُحمد

ثم مررت بصديق لي من الادباء فلبى دعوتي وجلس الى جانبي فحدثتهُ بما كان يجول في خاطري من شؤون الترف في مصر فقال لي ان في مصر كثيرين من الامراء والاغنياء فلا يلامون على ما نرى من آثار نعمتهم بل تراهم يُذمون بكل شفةٍ ولسان اذا هم قتَّروا على انفسهم وعاشوا عيش الفقراء فيكونون وبالاً على المجتمع لا ينتفع الجمهور منهم ولا تظهر المدنية آثارها فيهم . قلت نعم انما قائلك ان الترف يحمد ويُذم بما يحدث من الاثر النافع او الضار وهو تابعٌ خطوات الغنى بل مظهرٌ من مظاهره ولقد اختلف شأنهُ باختلاف الامم والعصور . ففي كل زمن ترف واعتدال وشظف وهي نسبيَّة اذا اعتبرتها بالنظر لحالة الزمان والمكان وباعتبار درجة المجتمع من العمران في الازمنة القديمة كان المترفون يقتصرون على ما لديهم من اسبابه . فكنت تراهم يبنون الدور الفسيحة بالنسبة لاكواخ الاهلين وكانوا يبذلون الاموال الطائلة بالنسبة لاحوالهم الماليَّة وموارد رزقهم وذلك على زخرفة تلك الدور بنقش داخلها واذا ظهروا للناس يجتازون عنهم بلباسهم الفاخر واذا ركبوا فالخيول الجياد بالعدة الفاخرة والسلاح المذهب ووراءهم عدد من الاتباع والخدم واذا جلسوا الى الطعام يزدحم الخوان بمن يجتمع عليهِ وهذا اهم مظاهر الترف القديم

فقال صاحبي ولكنك نسيت او تناسيت شهوات الكثيرين من المترفين يومئذٍ على احراز الاعلاق النفيسة من الجواهر والمجارة الكريمة والجياد المطهَّمة وامثال ذلك مما لم يكن لازماً لهم واذا كانوا يبذلون في نيلهِ المال لينافسوا اقرانهم ويفاخروا بهِ من هم دونهم

قلت صدقت ولكن تلك الحالة لم تكن تبلغ من المضرة بالمجتمع مبلغ الحالة الحاضرة

فقاطعني واجاب واي ضرر اعظم من قومٍ لم يكن النقد كثيراً بين ايديهم فكانوا لا يصدقون أن يستغلوا تاج ارضهم حتى يبيعوها ويؤدوا قيمتها ثمن الشيء الفاخر الذي رغبوا فيهِ

قلت ثم بعد ما تكن احوالهم المعاشية داعية الى التأنق الحالي في المطعم والملبس والمركب والدار بل كانت النفقات العادية ميسورة لهم بما تدرّ عليهم غلاتهم فاذا انفقوا الزائد منها وهو الشيء الكثير على شراء جوهرٍ او جواد او غير ذلك فتلك تبقى في حوزتهم وثمنها قائم بها وباق فيها ومع انهم لم يكونوا في حاجة اليها فانها تحفظ ثمنها

وفوق هذا فاني لا ارى شيئاً من الضرر في الترف القديم باعتبار كونه يحفظ المال في المجتمع وانما قد ينقله من يدٍ الى اخرى . ألا تذكر ان المترفين الذين كانوا يبنون القصور الرحيبة انما عهدوا ببنائها للبنائين من الوطنيين وجعلوا زخرف جدرانها وسقوفها وسائر اخشابها للنجارين الوطنيين . وكان الاثاث الذي يستجيدونهُ من الصناعة الوطنية ومثلها الخيول والعدد والسلاح وامثال ذلك بحيث ان المال الذي كان ينفقهُ المترفون لم يكن ينقص شيئاً من الثروة الوطنية لان الوطني كان ينتفع من ترف الغني ليس فقط باحراز الاجور والاثمان بل بتحسين الصناعة الوطنية وتنشيط عمالها المجيدين من البنائين والنجارين والدهانين والمجدين والصياقل وغيرهم

فقال صاحبي مهلاً انك لتعلم ان بلادنا منذ عُرفت لم تكن تقوم بحاجاتها من نتاج ارضها وصناعتها ولذلك كانت تأتيها التجار من كل قطرٍ للبيع والشراء حتى ان الزمن الذي تشير اليهِ في عرض كلامك كان لا يخلو من تجارٍ غرباء يحملون اليها نتاج صناعاتهم وكأن احتياج بلادنا للعروض التي يحملون كان امراً مستفيضاً حتى ان ملوكنا منحوا تجارهم كثيراً من الامتيازات تجرئةً لهم على الاتجار معنا بمصنوعاتهم فهذا السلطان صلاح الدين الايوبي عاهد جمهوريةً بيزا الايطالية سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) وهذا السلطان خليل بن قلاوون عاقد سنة ١٢٩٠ م جمهورية جنوى ومثلهما السلطان ابو النصر قايتباي تواثق سنة ١٤٨٨ م مع جمهورية فلورنسا وغيرهم من السلاطين والملوك واثقوا غير واحدةٍ من دول اوربا لاستبضاع صناعاتهم . ولذلك ارى أن ما رأيت من وطنيّة الصناعات في القديم لم يكن ثابتاً

قلت اني لا انكر ما قدمت غير ان مبلغ ما اتحفت اليهِ تجارة الافرنج مع بلادنا لم يكن زائداً عن الحاجات الضرورية لان صناعهم لم يكونوا قد تفننوا في معدّات الترف حتى يلفتوا بها حد الزيادة عن طلب مترفيهم يومئذٍ ولو تسنى لهم ان يجيئوا بشيءٍ منها لما وجدوا لها سوقاً رائجة بين قوم يتمسكون بعاداتهم واخلاقهم ولا يتعدون عنها الاّ اضطراراً

فقال صديقي صدقت الاّ ان العمران الحالي حدا بقومنا الى الاقتداء بالذين سبقونا في الحضارة وانت تعلم اننا مغلوبون على شؤوننا والمغلوب مولعٌ بالاقتداء بالغالب كما قال ابن خلدون

اجبت على رسلك . ان الخطاء كل الخطاء في ما تزعم من ان الافرنجي يترف كترفنا

ويسرف كاسرافنا لانهُ لم يبلغ الى ما ترى عندهُ من الترف الاَّ تدريجاً . نعم ان الفرق عظيم بين منازل عامتهم لان كثيراً من حاجيات اليوم كان من معدات الترف بالامس ولكن رقي مجتمعهم درجةً فدرجة صيَّر تلك الكماليات حاجيةً وكثرة المعامل والمصانع وما اكتسبت من التفنن يسَّر نيلها على رغائبها . فهذا الرقيّ في العامة يتناول الكبراء ايضاً . الذين كان سلفهم يترفون على نمط يكاد يكون شبيهاً بترف كبراء بلادنا قديماً ثم تدرجوا حتى بلغوا لهذا اليوم الى موقفهم الخالي . فترى دور عظمائهم حافلةً بالرياش الفاخر والمتاع الثمين وكلها اما من صناعات بلادهم او مستوردة من بلاد اخرى بقصد عرضها على انظار صناعهم ليستفيدوا منها التفنن في صناعتهم . ومن ثم فان احرازهم الاعلاق النفيسة يكون للتنافس ولاظهار مفاخر صناعهم

اما نحن فعهدنا بالنهضة حديث بل نحن الآن مشتجرون طا والانقلاب في عاداتنا واحوالنا جارٍ مجراهُ ولم ننسَ بعد ملابس آبائنا واثاثهم وما عونهم ولولا انا خلطنا اللباس القديم بلبسنا آخر الازياء دفعة واحدة لكنا الآن في سلَّم التدرج ولكن الطفرة دفعت بنا فطارحناها

دع الامراء والعظماء فان لهم شأناً واعطف بي على عامة الناس وقل اما كنا بالامس نسكن الاكواخ او البيوت الحقيرة كما ترى في ارياض العاصمة فما بالنا خرجنا منها دفعةً واحدة لابتناء القصور الرحيبة اما كان اثاثنا مقتصراً على ما مسَّت اليه الحاجة فما بال رياشنا اليوم يفاخر قصور الامراء بالامس اما كنا والعهد بنا قريب نشق اسواق البلدة مشاةً على الاقدام نزاحم بعضنا بعضاً ونتسخط بالوحول والاقذار او نركب العير والبغال والحمير فما بالنا اليوم لا نكاد نرضى الاَّ بالاوتومبيل الكهربائي

نعم زاد الغنى واخذنا بمعدات الحضارة وصارت مظاهرنا تدل على النعمة والراحة اقتداء بمن نعاشر من الفرنجة ولكن اولئك اذا اكثروا من شراء ما لا يحتاجون فانما يفعلون تنشيطاً لصناعاتهم وعلماً منهم ان ما يخرج من جيوبهم لا يذهب ضياعاً فيملأ جيوب الآخرين من غير مواطنيهم اما نحن فانما نجري على خطواتهم في الترف وتزيدهم في انا نذهب بمال يجرح الوطن بتاتاً

فقال صديقي احسب ان المترفين من الفرنجة انما يسرفون تنشيطاً لصناعاتهم اجمعة كلاً وانما اردت ان المال الذي ينفقونهُ بسخاء على الترف يؤدي الى رواج التحف ونتاج الصناعة الفاخرة ويحمل سهرة الصناع على ان يشحذوا افكارهم للاجادة ومع هذه الفائدة الناتجة عن سخاء المترفين ترى كتَّابهم يشددون عليهم النكير فاحرِ بنا ونحن نسرف على ترفنا لننقل مالنا الى جيوب اولئك الصناع ان نزيد في التقريع والتنديد

قال محدثي الآن فقهت معنى كلامك ومرمى افكارك ولكني ارى لقومنا عذرًا في شراء مصنوعات الافرنج لان صناعتنا الوطنية تكاد تكون عدمًا فيضطر سوادنا الاعظم الى شراء ما يحتاجهُ من مصنوعات الاجانب . قلت لو اقتصرنا على شراء ما نحتاج اليهِ لهان ولكان جمهورنا معذورٍ لضعف صناعتنا ولانا لا نجد منها ما يقوم بلوازمنا ولكنَّ البليَّة انا نشتري ما لا نحتاج اليهِ ولا هو من ادواتنا ومقتضيات عوائدنا ولا يُعارض قولي بما تبدَّل من شؤوننا وبما رغبنا فيهِ من معدات الحضارة فانَّا الحضارة بلبابها ونحن تهافتنا على القشور فجهلنا فقلد الافرنج في ظواهرنا ونغض الطرف عن الحقائق

ثم ان المركبة بلغت بنا موقفًا قليلاً بين اشجار الجيزة فاوقفناها لتمتع الناظر بابهج ما رأت العين في هذه الديار بالماء والخضرة . فمرَّت بنا اوتوموبيل تحمل شابًا في مقتبل العمر الاَّ انهُ نحيل القوام اصفر الوجه فقلت لرفيقي اما ترى هذا ابنك قال بلى واني لاعرف سيرتهُ قلت وما قولك في ترفهِ قال زائد الحد مؤدٍ الى الخراب قلت ان اباهُ خلَّف لهُ مالاً طائلاً فكان يسرف منهُ في حياة ابيهِ خفيةً عنهُ حتى اثقل كاهلهُ الدين فلا ترفي ابوهُ باع من املاكهِ وعقاراتهِ ما لو بقي الى اليوم لاصاب فيهِ ثروة كبيرة . قال صدقت ولكن هذا مسرف قلت ومترف ايضًا فترى دارهُ او دورهُ ملأى بنفائس التحف وفي كل منها ما يعد ثروة

وتراهُ يقضي ليالي في الحانات والمقامر بين الكأس والقيان والميسر حتى يلوح الفجر ويفرغ الجيب من النقد وقد يستدين من المتقين حولهُ والمستنزفين اموالهُ ومن مهر الليل نام النهار واضاع وقت العمل وتراهُ قد نحل جسمهُ وتولاهُ الخمول والضعف فلا يقوى على الاحتمال طويلاً . ولست لاشير لهذا الشاب الاَّ لاقدمهُ لك نموذجًا لامثالهِ الكثيرين الذين يعيشون عيشًا منغصًا بالترف ولو اقتصر وبالهم على انفسهم لهان ولكن الناس مولعون بالاقتداء بكبرائهم فكم من فتىً غضيض الشباب يكاد يتمهُ الحياء عن دخول الحانة ولكنهُ يمرّ عليها فيرى الجلوس فيها من كل من تعلو في عينهِ منزلتهُ وتحلو عشرتهُ فيدخلها ولا يطول بهِ الزمن حتى يُعدى بجرب الراح والميسر والفسق والاسراف فيجرّ على ذويهِ الخراب لانهم لا يماثلون المقتدى بهم في الثروة

فصدَّق صاحبي على كلامي وقال ولكنك وصفت داء بلادنا ولم تصف الدواء فقلت خير ما يجب ان يسعى اليهِ الآباء في تنشئة بنيهم هي ان يحتفظوا من نعماء انفسهم امامهم وان يعودوهم العمل

ان الفراغ والشباب والجدة مفسدةٌ للمرء اي مفسدة

واذا كان عظماؤنا يرغبون في التقليد كما نرى من ظواهرهم فما بالهم لا يقلدون في الامور النافعة فان كبراء الافرنج واخص منهم الامة البريطانية يحرصون على نبالتهم اشد الحرص ومع ذلك تجدهم يعلمون اولادهم تعليماً متقناً ثم يرون في اميالهم ويوافقونهم على رغائبهم في اختيار العمل الذي تطيب لهُ نفوسهم وحتى اختاروهُ مالوا الى تعلم اساليبهِ حتى اذا نالوا الشهادة مؤذنةً بالقائهِ زجوا في بحار العمل فتجدهم لذلك متبحرين في كل الاعمال من جندية وبحرية وخدمة حكومة وتجارة وصناعة وزراعة وامثالها فيبدأون باعمالهم صغيرةً كانهم ليسوا من ابناء الكبار ولكنهم تعظم فيهم نفوسهم عن الارتضاء بحالهم وينصرفون الى عملهم بملء جهدهم فلا يلبث ذلك العمل ان يكبر باجتهادهم ولا يطول عليهم الزمن حتى يجنوا من ثمراتهِ مجداً طريفاً يزيد على مجدهم التليد ويصبح لهم فخراً وشرفاً . وانت تدري ان العمل شريف لذاتهِ وان من اكبَّ عليهِ لا يجد من وقتهِ فسحةً للتلهي . ويسر عليهِ ان ينفق المال جزافاً لانهُ قضى في اجتنائهِ زهرة العمر وكدَّ الخجل

ر . ن

حب الذات

لا يخفى ان الحب على انواع واولها حب الذات وهو مجموع غرائز ورغبات وشهيات وضعها الله سبحانهُ في الانسان لحكمة ارادها في حفظ وجودهِ وبقاء نوعهِ وربطها فيهِ برباط الشعور باللذة من كل ما يضمن سلامة الحياة ويكفل البقاء وبالألم من كل ما يرجع اليها بالمضرة والاذى

وليس حب الذات في الانسان اكتسابياً او نتيجة تعقل واستدلال وانما هو ميل فطري فيهِ ينشأ مع الحياة ويظهر يوم ظهور الفكر ولذا ترى المرء شديد الحرص على الحياة مولعاً بالبقاء ولو تنابعت عليهِ النوازل وحاقت بهِ الشدائد فانهُ لا يطلب لاجلها انقضاء ولا يروم لشعلة حياتهِ انطفاء . واذا سألت السجين مرصوفاً بالحديد في غرفة مظلمة لا يأكل غير ما يسد الرمق ولا يكتسي الا الرث ولا امل لهُ الا الاستمرار على انشقاء هل ترغب في الموت لتتخلص من المتاعب فيبرم واجابك انهُ يؤثر الحياة على الموت وليس عليهِ المحتضر والمريض والفقير وكل من فيهِ نسمة حياة ولهذا لا يغرنك ما تسمع من شكوى الشيوخ من تعب الحياة واكدارها فان ما يطلقونهُ بلسانهم من الرغبة في الموت ترتعد لحقيقتهِ قلوبهم وما شكواهم الا لدنو الاجل وقرب مفارقة الدنيا كما قال ابو الطيب